

رعاية المعاقين عبر التاريخ

الدكتور محمد الطاهر المحمودي

جامعة السابع من أبريل - ليبيا

لا شك أنّ الإنسان يشكّل العنصر الأساسي والمهم على سطح الكرة الأرضية، فهو خليفة الله في الأرض، وهو ثروة الأمم الرئيسة التي تراهن بها من أجل حياة أفضل.

إنّ البشر سواء أكانوا أسوياء أم معاقين في علاقات متشابكة ومتداخلة في اتجاهات عدة من الحياة، سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم غيرها من الأنشطة والاتجاهات الأخرى.

والوضع الطبيعي للإنسان هو أن يعيش في أسرته وبين أفرادها، بحيث ترعاه وتحقق له حاجاته الاجتماعية، والنفسية، والمادية، وغيرها من الحاجات الأخرى التي تعد ذات علاقة بالكائن البشري.

وبهذه الكيفية يمكن للفرد أن ينمو نمواً متكاملًا قدر الإمكان، ليساعده على تشكيل الشخصية السوية القادرة على التكيف في المجتمع وعلى مواجهة المواقف الصعبة التي قد يتعرض لها وتواجهه في سنين حياته.

إنّ الأسرة هي المكان الطبيعي لإيواء كلّ فرد من أفرادها، فهي المظلة التي تحميهم، بحيث لا يتعدون عنها إلاّ عند الحاجة الملحة لذلك، وإن دعت الضرورة إلى وجود بديل، فيجب أن يكون أقرب ما يكون للوضع الطبيعي الأسري الذي يعيش فيه الفرد.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي

إنّ مشكلة الإعاقة ليست وليدة اليوم أو الأمس، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وإنّ تعرّض الأفراد للإعاقة بمختلف أنواعها ليست وليدة الحياة المعاصرة، فالإنسانية على مر العصور اتخذت مواقف مختلفة نحو هذه المشكلة وارتبط ذلك بالأفكار والثقافات السائدة في كلّ عصر.

لقد تحمل الأشخاص المعوقون على مدى قرون عبئاً مزدوجاً: فلم يقتصر الأمر على كونهم معوقين عقلياً أو جسدياً بسبب عيوب عند الولادة وأمراض وحوادث، بل إنهم يمثلون أيضاً مجموعة من أكثر مجموعات المجتمع في العالم تعرضاً للاستغلال والقمع والتجاهل⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار، فإنّ الباحث سيتناول أحوال المعاقين خلال عدة أزمنة وعصور تاريخية تأتي كالآتي:

أولاً- العصور القديمة:

إنّ المتتبع للتأريخ يجد في الأزمنة والعصور القديمة أنّ مبدأ البقاء للأقوى هو الذي كان سائداً في تلك الفترة في المجتمعات البشرية، وأما بقية الضعفاء فلا مكان لهم بين الأقوياء، بحيث كانت القوة هي المقياس الوحيد للأشياء كلها، فبالقوة واللياقة الجسميّة يؤمن الإنسان غذاءه ويدافع عن نفسه، بل وعن جماعته ومكانه وملكيته أيضاً.

لقد كان الإنسان في تلك الفترة يصطاد الحيوانات والأسماك، ويتعرض خلال ذلك إلى العديد من المخاطر، سواء أكانت من قبل الحيوانات المفترسة، أم الظروف الطبيعية والمناخية الصعبة التي تواجهه وتتحداه أحياناً، ولكن نتيجة لقوته وسلامته

(1) الوقائع، مجلة الأمم المتحدة، السنة الثالثة عشر، العدد (13)، سبتمبر 1992، ص76.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي

الصحية عندما تتوافر لديه، قد يستطيع التخلص أو الخروج من تلك المواقف الحرجة التي قد تقضي عليه أحياناً أخرى.

أما المعاقون فكانوا منبوذين وكانت نظرة المجتمع إليهم سلبية وسوداوية، وذلك بسبب القصور والعجز الكلي أو الجزئي المصابين به نتيجة للإعاقة، هذا وقد أرجع الناس من قديم الزمان شذوذ تكوين المخلوقات إلى قوى غيبية، أو تصورات غير منطقية... وما صاحب ولادتها من أحداث اعتبروها نذير شؤم بمقدمها إلى الحياة، أو هي دلالة على غضب الآلهة، ولهذا كان من عادة القدماء أن يقتلوا كل وليد يجيء بشيء شاذ في جسمه، وأحياناً يحكمون بالموت على أمه ظناً منهم أن ذلك إرضاء لألهتهم الغاضبة، كذلك كانت الإعاقة (العمى، القصور...) مرتبطة في العصور الأولى بغضب الآلهة، وأن الرجوع إلى الميثولوجيا اليونانية والرومانية والجرمانية والسلتية، يساعد الدارس على الوقوف على ميثاق الأساطير من هذا النوع، وكان العمى بصفة خاصة مرتبطاً بانتقام الآلهة التي حرمت عبدها من نورها و من التمتع بجمال كونها نتيجة فواحش ارتكبتها، أو قرباناً لم يقدمه لها، أما الإعاقة الذهنية فكانت مرتبطة بعالم الشياطين، لذا تحتم أن يُعَد ذو الإعاقة الذهنية من عالم الإنس⁽¹⁾

(1) رمضان محمد القذافي، سيكولوجية الإعاقة، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1988، ص50.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي

وبذلك أتممت معاملة هؤلاء المرضى بالعنف والقسوة والاضطهاد والجهل والخرافة، حيث كان المرضى يصفدون بالأغلال الفولاذية، وتكوى أجسادهم بالنار، وكانوا يعالجون - يعاملون - بأبشع الطرق وأقساها⁽¹⁾.

إذن من خلال ذلك الوضع المتردي والصعب لحياة المعاقين، نجدهم يحكم إعاقتهم غير قادرين على المشاركة الفاعلة في أغلب الأنشطة السائدة، وقضاء وإحضار لوازم الحياة اليومية، بل وأحياناً نجدهم غير قادرين حتى على حماية أنفسهم من الأخطار التي قد تهدد حياتهم.

(1) خالد رشيد الحيسري، الصحة النفسية والمرضى النفسي، الرياض، شركة مطابع نجد التجارية، جمادى الثاني، 1404هـ، ص13.

ثانياً- العصر الإغريقي:

أمّا في العصر الإغريقي، فلم يشهد حال المعاقين تحسناً يذكر في أحوالهم، حيث نجد أنّ أفلاطون كان رأيّه في المعاقين على درجة كبيرة من التطرف والمغالة في رفضهم وبذهم والتخلص منهم، حيث لم يجعل لهم مكاناً ولا دوراً في مدينته الفاضلة، واعتبر أفلاطون أنّ الأفراد غير الأسوياء يشكّلون عبئاً على الدولة وتعويقاً لها على القيام بوظيفتها، بل نادى أفلاطون بعدم السماح لهم بالتزاوج، لأن ذلك يؤدي إلى تكاثرهم وإلى إضعاف وخراب المدينة. وبما أنّ أفلاطون نادى بمدينة فاضلة خالية من المشاكل والعيوب لها القدرة على توفير الحياة الفاضلة لسكانها، فإنه اعتبر العقل هو الأساس السليم لتوجيه الأمور فيها، ودعا صراحةً إلى إبعاد الأشخاص المعاقين خارج حدود مدينته، وفي اسبرطة حيث كانت القوة أساس الحياة وكان المرضى والمصابون بعاها، والأطفال المشوّهون غير مرغوب فيهم، وكانوا لا يحضرون باهتمام الدولة بل كانوا يعاملون معاملة قاسية، وكان الاتجاه العام هو التخلص منهم⁽¹⁾.

ثالثاً- العصر الروماني:

أما فيما يخص العصر الروماني، فقد بقي مصير المعوقين بيد شيخ القبيلة، الذي كان بيده وحده تقرير مصائرهم اعتماداً على درجة تقديره للإعاقة، وعلى ما تحتاجه من خدمات اقتصادية أو اجتماعية، ولذا فلم تكن هناك قاعدة ثابتة يمكن الرجوع إليها في التعامل مع مختلف حالات الإعاقة⁽²⁾.

(1) عبد السلام بشير الدويبي، الطفولة والتخلف الذهني، طرابلس، الجماهيرية الليبية، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، 1985، ص.ص 8-9.

(2) رمضان محمد القذافي، سيكولوجية الإعاقة، مرجع سابق، ص 16.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي

ومع ذلك يبقى حال المعاقين من حيث اتجاهات ومشاعر المجتمع السلبية نحوهم، حيث كان العصر الروماني مرحلة لاحقة واستمراراً لمعاناة المعاقين خلال العصر اليوناني السابق، التي كانت تتسم بالدونية والاشمئزاز وعدم الاحترام لأدميتهم، بل وإهمالهم والتفكير في كيفية التخلص منهم وحرمانهم من حقهم في الحياة إلى جانب إخوانهم الأسوياء.

رابعاً- العصور الوسطى:

أما في العصور الوسطى فلم تلق فئة المعاقين أي اهتمام أو تقدير لهم، بل استمرت نظرة المجتمعات القديمة في أوروبا حتى منتصف تلك العصور نظرة احتقار وإهمال وعدم رعاية، فقد كانت الكنيسة تقول بأن المرض بأنواعه قصاص على ما اقترفه الإنسان من ذنوب، وأن الإعاقة تقهقر فكري تضعف فيها الروح وتسيطر عليها المادة، وتعتبر العصور الوسطى في أوروبا بما صاحبها من مظاهر الجمود الفكري، وطمس الأفكار المعارضة لاتجاهات رجال الكنيسة عصر نكبة حقيقية للتعوقين، إذ عملت محاكم التفتيش على اضطهادهم وإيذائهم بدعوى تقمص شياطين لأجسادهم، وبذلك فقد أصبحوا صنائع للشياطين⁽¹⁷⁾.

فوق ما تقدم كانت العصور السالف ذكرها تعامل فئات المعاقين معاملة لا تتسم بالإنسانية على الإطلاق، وقد ساد التفكير الخرافي غير الواقعي لرجال الكنيسة نحو المعاقين في تلك الفترة، الأمر الذي ألحق بالمعاقين أبشع أشكال التعذيب والإهانة وعدم الاحترام لأدميتهم.

(17) رمضان محمد القذافي، سيكولوجية الإعاقة، مرجع سابق، ص 14.

خامساً- العصر الإسلامي:

استمر حال المعاقين على هامش الحياة يعاني من العادات السيئة والأفكار والاتجاهات الخاطئة تجاههم التي كانت تسود في تلك المجتمعات، إلى أن جاء الدين الإسلامي الذي يدعو إلى الحب والتعاطف وعدم التفرقة، وإلى الرفق بالضعفاء والعجزة ومساعدة المحتاجين منهم، وإشاعة المساواة والعدل بين الناس دون النظر إلى الجنس أو اللون.

ولقد فضل الدين الإسلامي بني آدم على بقية المخلوقات الأخرى بمدى الإيمان بالله، وبما يقدمون من عمل صالح وطاعة لله ورسوله، فالإسلام لا يطالب الإنسان إلا بما يستطيع القيام به من عمل صالح.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾⁽¹⁾، ويقول جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾⁽²⁾، ويقول تعالى أيضاً: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ...﴾⁽³⁾، ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾⁽⁴⁾.

(1) سورة البقرة: من الآية (286).

(2) سورة الإسراء: الآية (70).

(3) سورة النور: من الآية (61).

(4) سورة الحج: من الآية (46).

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي

ويقول صلى الله عليه وسلم: ليس الأعمى من يعمى بصره، وإنما الأعمى من تعمى بصيرته⁽¹⁾.

ولم يقف الإسلام عند هذا الحد فقط؛ بل اهتم بالجوانب الخلقية والمعنوية والنفسية لدى بني الإنسان، فنهى عن الاستهزاء والاحتقار، وحث على عدم التفرقة بين سوي ومعاق، وبين ذكر وأنثى، لما يترتب على هذه التفرقة من نتائج سيئة على الإنسان نفسه وبخاصة المعاق.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمًا مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁽²⁾.

وفي هذا الإطار فقد ورد كثير من الأحاديث الشريفة التي تدعو إلى التعاون والتآزر والحب ومساعدة الضعيف أو المعوق... فلا يشمت الناس في مصائب بعضهم بعضاً، لأن الإسلام كما رأينا جعل من المؤمنين إخواناً متعاونين في الشدائد لحل مشكلاتهم... وكل إنسان معرض للإصابة والابتلاء، فإن وجد من أخيه العون هانت أمامه كل الشدائد والنكبات...⁽³⁾.

(1) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، للإمام جلال الدين الأفغاني بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1410 هـ، 1990 م، رقم الحديث (7569)، ص 464.

(2) سورة الحجرات: الآية (11).

(3) محمد مصطفى حماد، المعوقون والمسكن والمدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، ص.ص 22-23.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي

وعليه اهتم المجتمع الإسلامي اهتماماً كبيراً بفئات المعاقين ولم تهمل كما كانت في العصور السابقة للإسلام، إذ خصص الإسلام لفئة المعاقين من يقوم بمساعدتهم في حركتهم وتنقلهم، وأقيمت المراكز والمستشفيات لرعايتهم وتقديم العلاج اللازم لهم، فكان يطلق في أغلب الأقطار العربية والإسلامية حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي على المستشفيات (البيمارستانات) التي يتوافر فيها العيش الكريم للمعاق والمريض على حدٍ سواء، وقد استمر الحكام المسلمون في الاهتمام والعناية بالمرضى والمعاقين، وتقديم الخدمات اللازمة لهم، سواء أكانت طبيّة أم غذائية أم ترويحية، ومن أمثال أولئك رموز الإسلام: عمر بن الخطاب، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهم... ممن وفروا الخدمات والرعاية الجيدة لأولئك الذين هم في حاجة إليها، ومن مظاهر اهتمام عمر بن عبد العزيز الشديد بالرعاية الاجتماعية بالمرضى والمعاقين أنه عمل على إحصاء المعاقين وخصص مرافقاً لكلّ كفيف وخادماً لكلّ مقعد لا يقوى على أداء الصلاة قياماً⁽¹⁾.

وفي اتجاهنا نحو القرون الأخيرة فإننا نجد أنّ معظم المجتمعات فيها قد واصلت ما بدأه المسلمون من اهتمام بالمعاقين واحترامهم وتقديرهم، بحيث استفادت بما جاء به الإسلام من قواعد وأسس وسُبل رعاية المعاقين والمرضى، واحترامهم احتراماً لأدمية الإنسان بعامّة.

وفي عام 1601م ظهر قانون الفقر الأوّل الذي أكد على مسؤولية الدولة في الاهتمام والرعاية للمرضى والمحتاجين ومعدومي الأهلية، وشهد القرن الثامن عشر تطوراً ملحوظاً في العلوم الطبية وتزايد الأطباء، وبالتالي تنعكس الأمور إيجابياً على

(1) سيد محمد فهمي، مدخل إلى الرعاية الاجتماعية من المنظور الإسلامي، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، 1988، ص.ص 193-194.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر الحمودي

رعاية الأفراد ومن بينهم المعاقين، وفي عام 1893م أنشأت مدارس خاصة لتعليم المكفوفين والصم والبكم، وخلال الفترة ما بين 1897-1916م، صدرت العديد من القوانين التي تؤكد وتهتم برعاية المرضى والمعاقين وتكفل حقوقهم في الضمان الاجتماعي إذا ما تعرضوا لإصابات أثناء العمل⁽¹⁾.

وهكذا نجد في العصر الحديث، وبخاصة في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين وبعد صدور تقرير الأمين العام للأمم المتحدة، السنة الدولية للمعاقين، في الدورة الحادية والثلاثين للجمعية العامة للأمم المتحدة، أشارت الجمعية العامة في قرارها 123/31 المؤرخة في 16 كانون الأول، ديسمبر 1976، وإلى قرارها 2856 (د-26) المؤرخ في 20 كانون الأول، ديسمبر 1971، والمتضمن لإعلان حقوق المتخلفين عقلياً، وقرارها 3447 (د-30) المؤرخ في 9 كانون الأول، ديسمبر 1975 والمتضمن لإعلان حقوق المعاقين وقرارها 82/31 المؤرخ في 13 كانون الأول، ديسمبر 1976 بشأن تنفيذ إعلان حقوق المعاقين، واستناداً إلى هذه القرارات جميعاً أعلنت سنة 1981 سنة دولية للمعاقين، شعارها (المشاركة الكاملة)، ودعت الجمعية العامة في القرار ذاته جميع الدول الأعضاء والمنظمات المعنية إلى الاهتمام بوضع تدابير وبرامج لتنفيذ أهداف السنة الدولية⁽²⁾.

وإلى جانب ذلك ظهر في العصر الحديث الاهتمام الكبير بحالات الإعاقة، والبحث في أسبابها المتعددة والكشف عنها وتقديم العلاج اللازم إلى المعاقين،

(1) أحمد مصطفى خاطر، الخدمة الاجتماعية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، (دون تاريخ)، ص 457.

(2) من أجل المعاقين، السنة الدولية للمعاقين: المشاركة الكاملة، (الجزء الرابع)، الأمانة العامة للاتحاد العربي للأخصائيين الاجتماعيين، بنغازي، (بدون تاريخ)، ص 40.

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر الحمودي

وإظهار حجم مشكلة الإعاقة ومسبباتها، والتخلص من الأفكار التي كانت سائدة في العصور القديمة والوسطى المظلمة التي كانت تصف المعاقين بأنهم صنائع للشياطين، وغير ذلك من الصفات والنعوت التي لا تليق بالإنسان وبأدميته.

وهكذا أصبحت المجتمعات في العصر الحديث تهتم بالمعاقين وتوفر لهم الخدمات والرعاية اللازمة التي تؤهلهم أو تعيد التأهيل إليهم حتى يدمجوا في المجتمع ويسهموا في بنائه حسب قدراتهم وإمكانياتهم المتوافرة لديهم، وبذلك يبعد عنهم الشعور بالنقص ويحسون بأنهم مثل الأسوياء عليهم واجبات نحو أنفسهم ومجتمعهم، ولهم حقوق مكفولة ليحيوا حياة منتجة وكريمة.

ومن الأعمال التي يمكن أن يمارسها المعاق في العصر الحالي هي: تقديم بعض الخدمات التي يستطيع القيام بها والتي تتماشى وقدراته، مثل بعض الخدمات البريدية والطباعة، وبعض الصناعات اليدوية، وغيرها من الأعمال التي تُظهر قدرة المعاق على تحدي الإعاقة وصعابها، وتسهم في إدماج المعاق في الحياة الاجتماعية والخدمات والإنتاجية لمجتمعه من خلال ما يقدمه من خدمات تعود بالفائدة العظيمة على المجتمع وكافة أفراده بعامه، وعلى المعاق نفسه، وتخلصه من الشعور بالنقص وعدم القدرة على مجاراة الأسوياء في العديد من الأعمال التي يستطيعون القيام بها.

ولقد اهتم العصر الحديث الاهتمام الواضح بفئات المعاقين المختلفة، وأخذت المؤسسات الأهلية والرسمية، بل والدولية دورها الفعال في هذا المجال، بحيث طورت البحوث والدراسات العلمية في مجالات الإعاقة، ومنها مجال الصحة النفسية والمرضى النفسي، والمرضى العقلي، والعلاج، وزادت أنواع المراجع العلمية والمجلات والدوريات المتخصصة في هذا المجال أيضاً، وامتد التعاون إلى بلدان كثيرة من العالم، وأقيم أول مؤتمر دولي للصحة العقلية في عام (1930)، ويتمثل هذا النشاط على

رعاية المعاقين عبر ----- د. محمد الطاهر المحمودي
المستوى الدولي فيما تقوم به منظمة الصحة العالمية وغيرها من منظمات الأمم
المتحدة من اهتمام بهذه الفئة من أبناء المجتمع⁽¹⁾.

من خلال ما تقدم اتضحت إذن ملامح التغير في كيفية معاملة المعاق بين الماضي
والحاضر، إذ نلمس الاتجاه نحو احترامه، وإتاحة الفرصة لإبراز ما لديه من قدرات
وإمكانات لتسهم في دفع عجلة التقدم إلى الأمام، وبالتالي إدماج المعاق في الحياة
المهنية الإنتاجية والاجتماعية، بل والجوانب الرياضية والسياسية كذلك، وغيرها من
مواطن العمل والإنتاج والبحث العلمي المختلفة، والتي تخص الأسوياء والمعاقين
على حدٍ سواء، مع الأخذ في الاعتبار الفروق الفردية والقدرات الخاصة التي تميز
الأفراد بعضهم عن بعض.

(1) خالد رشيد المحيسري، الصحة النفسية والمرضى النفسي، مرجع سابق، ص 24.